

الاسلام ومشاكل القرن العشرين

للاستاذ عبد العزيز بن عبد الله

والبخارى ومسلم وبعض السنن والمسانيد ، فاذا رجعنا الى الاصول المنتقاة متتبعين سلسلة الاسانيد التى تعتبر احد مفاخر الفكر العلمى الإسلامى — لما انطوت عليه من تدقيقات وتحريات — امكنا ان نستخلص فى وضوح جملة من الافكار الاسلامية التى دعم بها سيدنا محمد عليه السلام هيكل الاسلام فى مقوماته الجوهرية ولن يكون بحثنا — نظرا لضيق المقام — مستقصيا ولا مستوفيا ، ولكن انتقائيا ، نستكمل جوانب النقص فيه بالاجابة عما يعن لحضراتكم من اسئلة استيضاحية .

فلنبدا بالجانب الاجتماعى فى آراء ونظريات الرسول عليه السلام ، فقد بلغت الاحاديث ذات الطابع الاجتماعى حسب احصاء قيمت به شخصا نحو اربعة اخماس المجموع وضعت كلها حلولا رصينة لقضايا المجتمع .

ويشكل هذا المجموع ما يمكن ان نسميه تجوزا ينجذب اليها كثير من شبابنا ومن هذه الايديولوجيات مذهب الماركسية الذى تواجهه فى الاسلام فكرة العدالة الاجتماعية والتعادلية الاقتصادية ، فاذا اعتبرنا ان الماركسية تتركز على ثلاث دعائم اساسية هى الحد الحوى الأدنى والتسوية الطبقة ، واعتبار العمل بمثابة رأس المال الحقيقى طبقا لمبدأ Capital-travail (العمل رأس المال) لكارل ماركس ، وجدنا الفكرة الاسلامية ملخصة فى ثلاثة احاديث شريفة هى قوله عليه السلام :

اتعمد فى قرطبة بين 21 و 27 مارس 1977 المؤتمر الاسلامى المسيحى العالمى الثانى امتدادا للمؤتمر الاول الذى انعقد منذ سنتين بنفس المدينة ، وكان موضوع هذا اللقاء هو شخصية سيدنا محمد وشخصية سيدنا عيسى عليهما السلام .

وفيما يلى موجز تدخل الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله

قال الفيلسوف برناردشو : «لو كان محمد حيا اليوم لحل مشاكل عصرنا وهو يشرب فنجان قهوة » . نعم ان رسول الاسلام قد خرق بفكره الثابت المعزز بالوحى غياهب الحضارات ، وحرر ابعاد الفكر البشرى ليستشف فى بساطة ممتعة الخلول المثلى لمشاكل الانسانية فى مختلف الاعصار والامصار .

لقد شملت نظراته الكاشفة شتى تطورات الانسان فى معالجات فكرية واقتصادية واجتماعية يندهش الفكر العلمى الناقد اليوم لدى انطباقها على معطيات انبعاثه المتجددة ، وتحديات هذا الانبعاث .

وسوف نستعرض نماذج من هذه البادران انطلاقا من نصوص الاحاديث الصحيحة التى اوصلها الامام احمد بن حنبل الى المليون اى الف الف بلغة ذلك العصر ، ولكن نقد رواة الحديث لم يحتفظ منها باكثر من خمسة آلاف هى قصارى ما ورد فى الصحاح كالموطن

(1) ان في المال لحقا سوى الزكاة (وهذا منطلق مشروع لتحقيق نوع من التسوية بين طبقات الامة) .

(2) انا خصيم من لم يؤد اجرة الاجير قبل ان يجف عرقه .

(3) من اكل اجرة الاجير حبط عمله ستين عاما .
وقد افرد ابن خلدون في مقدمته فصلا عنوانه « الكسب راس المال » حل فيه هذه الفكرة قبل الزعيم الشيوعي كارل ماركس بعدة قرون ، وقد القيت محاضرة في الموضوع في قلب موسكو بدعوة من اكاديمية العلوم .

ان احاديث الحسبة في الاسلام — وهي تستهدف القضايا الاجتماعية والاقتصادية — تشكل دستورا للمدينة الفاضلة التي يتحقق فيها التوازن هو سر الجمال والكمال في الحياة ، فالانسان الفاضل حقا هو الذي لروحه عدل ما يمنحه لجسمه وقد قال العالم باسـتور Pasteur « ان من قضى ساعتين في كل يوم يجب ان لا يعتقد انه اضاع وقته وانما اعطى لروحه بعض حقا » ، وقد غضب الرسول عليه السلام عندما رأى اقواما يتنزهون عما يفعله فقال معرضا بأولئك « انى اصوم وانظر واقوم وانام واتزوج ومن رغب عن سنتي فليس مني » .

وسئلت عائشة عما كان يفعله الرسول في بيته فقالت في جواب انساني رائع : « لقد كان بشرا كالبشر » وهذا هو سر عبقرية الرسول لانه عرف كيف يوفق بين جوادب الحياة وقد اعتبر عليه السلام مصلحة المجتمع انعلما وهي اساس الفكر الاسلامي ، ومن ذلك اعتبر الامام مالك مبدا « المصالح المرسلة » وتحكيم العادات كما اعتبر الرسول ان الحرية الحق هي التي لا تسطو فيها حرية على حرية وان ضابط السمو الروحي كامن في عدم المساس بحقوق الغير وكرامة الغير ، وان المومن الحق لا يكذب الا في اصلاح ذات البين ، وان من محبطات اعمال المومن اغتيال اخيه الانسان وقذف المرأة المحصنة وقد دخلت يهودية قصيرة القد على الرسول وعنده زوجته عائشة فتبسمت هذه استخفافا فغضب عليه السلام وقال : « يا عائشة لقد نطقت بكلمة لو مزجت بماء البحر لما زجته ! » .

وقد خول رسول الاسلام المرأة نصف ميراث الرجل معترفا لها بحق الاحتفاظ بمالها ومشاركة زوجها

في ماله بحكم النفقة المحتمة فكانت هي الرابعة ، كما حذر الرسول من الطلاق المشروع بقوله : « ابغض الحلال الي الله الطلاق » ملاحظا مع ذلك ان مصم عرى الزوجية ليس بالامر الهين وان « لا طلاق في اغلاق » وكأنه حل بهذه المرونة ما يواجه الانسانية اليوم من مضايقات ! وقد فضل الرسول تعدد الزوجات مع التشديد في لزوم العدل « ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » وهنا نوه كل من ويسترمارك Westermack الخبير الاوروبي في شؤون الزواج والزعيم الاشتراكي ليوم بلوم Blum بالتشريع الاسلامي حيث فضلا هذا النظام على عادة اتخاذ الخليلات التي تقوض الاسرة الاوروبية ، على ان نظام الاقتصاد القبلي في عصر الرسول عليه السلام كان يتطلب هذا التعدد الذي خفضه عليه السلام الى اربع نسوة بدل عشرة فآزید وقد اصدرت مصر بعد ثورة 1952 مرسوما اباحت فيه تعدد الزوجات في الريف لاسباب اقتصادية ومن جهة اخرى وجد الرسول مجتمع عصره غارقا في خضم الاسترقاق فوضع جملة من الكفارات ، لتشجيع العتق جاعلا حدا نهائيا للاستعباد خارج الجهاد المشروع وقد شرح ذلك سيدنا عمر بن الخطاب حيث قال مستنكرا : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ؟ » .

وقد وضع الرسول خطة رصينة للتخطيط العائلي لتلخص في الحرية الواعية فاباح العزل مع الدعوة الى الانجاب في حدود المسؤولية ، وكان عليه السلام يخاطب مائة الف صحابي فقط وهو عدد المسلمين في عصره ، عندما قال « تكاثروا تناسلوا فانى مياہ بكم الامم يوم القيامة » .

ومما يتصل أيضا بالمقوم الاقتصادي والاجتماعي في الامة ضمان مستوى ثقافي تنمحي معه الامية تدريجيا ، وقد دلت الاحصاءات في المغرب مثلا حسبما ورد في كتاب « المغرب المجهول » لموليراس الذي صدر عام 1895 على ان قبائل باكملها في شمال المغرب الاقصى كانت تعرف القراءة والكتابة لان المومن كان يشعر بان ايمانه لن يكتمل حتى يكون قادرا على قراءة القرآن . اما قول الرسول عليه السلام : « انا امة امية لا تكتب ولا نحسب » فانه استهدف بذلك ضرورة الانتطلاق من القاعدة مؤثرا اياها على هرم المجتمع في مستواه العالي ! وقد وضع عليه السلام ضابط الحجر الصحي

مظاهر الفكر الإسلامى الصحيح من النصوص الصحيحة
لأحاديث الرسول .

وهكذا أصدر سيفنا محمد عليه السلام في سنته
عن مبدأ اليسر حيث قال « ان هذا الدين يسر ولن
يشاد الدين احد الا غلبته » وقال : « ان هذا الدين
متين فاعمدوا فيه برلىق » .

كما أصدر عليه السلام في قوله وفعله كله عن
مبدأ الحب والرحمة والانسانية الشاملة فقال : « انها
انا رحمة مهداة ، وخاطبه الحق في قوله : « وما
ارسلناك الا رحمة للعالمين » فدعا الى الوحدة الحق بين
اهل التوحيد واعتبر المجوس الزردشتيين اهل الكتاب
لتوحيدهم وروى ابو هريرة قوله عليه السلام : « بشر
من قال لا اله الا الله بدخول الجنة » فلم يشترط عليه
السلام في الزلفى من الحق سوى توحيده وقد تعزز هذا
الحديث بحديث آخر عن ابي هريرة ايضا : « احق
الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا اله الا الله
خالصا من قبله او نفسه » ، وقد دعا الرسول الى حباية
الحيوان جميعه قائلا : « في كل كبد رطبة صدقة » وبذلك
اصبح المجتمع الإسلامى الصالح غير محتاج الى
« جمعيات الرفق بالحيوان »

ولا نقصد في حديثنا هذا الا الآراء المستخلصة من
أحاديث الرسول عليه السلام حيث ضررنا صفحا عما
ورد في القرآن من آيات سبقت الكشف العلمية بأزيد
من عشرة قرون وقد أصدرت مطابع (سيفرس)
Seghers بباريس عام 1976 كتابا لموريس بوكاي
Maurice Bucaille بعنوان : « التوراة والقرآن
والعلم » أكد فيه أنه لم يرد قط في القرآن ما يخالف
العلم ويتناقى مع معطياته .

وقد عزز الرسول التعادلية الاقتصادية بنظام
الزكاة الذى يقتطع من الغنى نصف عشر ماله لفائدة
الفقر دون أن يؤدي الأمر بهذا الفقر الى تكاسل عن
الكسب لان الكسب عبادة ولان الكد على العيال من
أكد القربات وقد قال عليه السلام : « لان يحتطب أحدكم
حزمة على ظهره خير من أن يسأل احدا اعطاء او
منعه » وقال : « اليد العليا (اي المعطية) خير من اليد
السفلى (اي الأخذة) واعتبر الرسول من الاصناف
الثمانية الذين لهم حق التمتع بالزكاة الفقير الذى له
قوت سنة كاملة لان الرسول اراد أن يوفر للمواطن كل
مقومات الحياة الوديمة الرغبة بالاضافة الى القوت
اليومى حتى يمكنه من اللباس الطيب ومن تربية أبنائه
والسهر على صحتهم والحفاظ على كرامة الاسرة كقوة

عندما قال : « اذا كان الطاعون في بلد فلا تدخلوه واذا
كنتم فيه فلا تخرجوا منه » كما أصدر سلسلة من
التشريعات التى تضع الحل المناسب لجملة من مشاكل
الصحارى والبادى التى انطلق منها الاسلام فقال عليه
السلام « اذا وقع الذباب في اناء أحدكم فليغمسه فان في
أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء » وقد قام مؤتمر طبى
انعقد بلندن عام 1930 بتحليل الجناحين فوجد في
أحدهما عناصر كيميائية تعقم العناصر الموجودة في
الجناح الآخر ، وقد نشرت مجلة « التقوى » المصرية
تقرير هيئة الاطباء في ابانه ، كما أكد عليه السلام ضمن
أربعمئة حديث طبى وردت في رسالة خاصة للسيوطى
قوله : « اذا ولغ الكلب في اناء أحدكم فليغسله سبعا ،
أحداهن بالتراب » . وفي ذلك إشارة الى أن جرثومة داء
الكلب لا تستأصل الا بالتربة المسماة humus والتي
هى أحد عناصر البنسلين pénicilline وكان عليه
السلام يداوى الجراحات بالرقيق ، وكشف الطب
الحديث أن ريق الإنسان يحوى من الفيتامين نحو مائة
ضعف ما يوجد في غيره .

وكان الرسول عليه السلام سباقا الى المرونة في
الدين فلم يستنكف عن مساندة بعض ما يندرج اليوم
تحت شارة الدرجة او الموضة حيث دعا الى الرفق
بالمرأة « رفقا بالقوارير » وسمح لعائشة وأم سلمة -
كما في صحيح مسلم - بحشى ثلاث حثيات على ضفيريتهما
في الوضوء الأكبر دون فكهما مستجيبا بذلك الى رغبة
عارمة عند المرأة المصرية التى تريد الحفاظ على دينها
دون أن تحرم نفسها من تزيينات الحلاقة
الحديثة ، وقد جعل الرسول من المرأة
رئيسة البيت والاميرة على شؤونها . ولولا
عاطفتها ورقة شعورها لاسند اليها الحكم في منصة
القضاء ، وقد أحاطها عليه السلام بمعطفه ودلها بما لم
تحلم المرأة المعاصرة بالتمتع به حيث أناط بها اختيار
شريك حياتها حقها المالى كاملا ، في حين أن المرأة
الغربية ما زالت ترزح في القرن العشرين تحت ثقل
نظام الشركة الزوجية

régime de la communauté matrimoniale

الذى يخول للزوج السيطرة المطلقة على مال زوجته وقد
سمح القانون الفرنسى مؤخرا في عهد الجنرال دوكول
G. De Gaulle بتسقط يسر جدا من هذه الحقوق التى
منع الرسول بها المرأة المسلمة منذ أربعة عشر قرنا وقد
صنفت في ذلك كتابا باللغة الفرنسية عنوانه : « أضواء
على الاسلام او الاسلام في بناييعه » حيث استقيت بعض

طبية للمجتمع الفاضل ذلك المجتمع السذى لا يكلى فى استكمال توازنه مجرد القيام بشعائر الدين من صلاة وصيام بل أن هذه الشعائر لن تؤتى أكلها حقا الا اذا قرنت بالتعاطف والتعاضد وتبادل الاحترام لحقوق المواطن ، ولذلك اعتبر الرسول من محببات الاعمال كل ما اخل بكرامة المواطن فضلا عن المساس بحق من حقوقه ، وقد دعا الرسول عليه السلام الى ما فى الآية الشريفة : «ان الله لا يغير أن يشرك به ويفر ما دون ذلك لمن يشاء» جاعلا من المستثنيات عدم قبول التوبة مالم يتم رد المظالم الى اصحابها اذ فى ذلك وحدة كفالة توازن المجتمع .

على أن تشريع محمد هو أصل مدونة نابليون التى ما زالت تاعدة التقنين والتنظيم بفرنسا ومن سبج فى فلها ، وقد انعقد مؤتمر دولى للقانون عام 1951 أجمع على الاعتراف بأن الفقه الإسلامى هو فقه عالمى يصلح أن يكون تشريعا للإنسانية جمعاء بما حواه من عناصر استكملت مختلف أوجه النظر فى المجالات الحضارية والاقتصادية والمعاملات .

تلك هى بعض مقومات المدينة الفاضلة كما ارادها رسول الاسلام ، ومن أروع المبادئ التى أقامها الرسول لحل جميع مشاكل هذا الكون فكرة النسبية *relativité* التى تميز بين العالمين : عالم الملك ، وعالم الملكوت ، وهما ما نسباه اليوم بعالم المحسوسات ، او المنظورات وعالم ما وراء الطبيعة ، او ما وراء المادة ، معتبرا كل ما يتصل بالإنسان نسبيا ، وكل ما يتصل بالله مطلقا ، ولم يقع المعتزلة فى شرك تعطيل الصفات الالهية ، الا بحياهم عن هذه القاعدة المثلى ، اذ ببدا النسبة نفهم قول الله تعالى : «وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون» وقوله : «فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» نظرا لاختلاف المقاسات والابعاد بين أطراف العالمين . وقد حمل رجل الفضاء فى سفينته القطة الصغيرة فعاد بها الى البسيطة وهى أكبر سنا من امها التى بقيت على الارض ، وقد خبط بعض العلماء والفلاسفة منذ عهد ارسطو فى علة الأربع المعروفة فى خصوص الدلالة على وجود الله وشك الفيلسوف الالماني كانتط فى كثير من مدارك العقل غير الخالص *Raison pure*

ولكن محمدا عليه السلام جاء بدليل بسيط عززه القرآن بقوله : «الله نور السماوات والارض» فكانه أراد أن يقتننا بأنه اذا كان العلم الحديث قد عجز عن استكناه ماهية نور الكهرباء مثلا وهو طاقة محسوسة فكيف بنور يخرج عن حيز هذا الكون ، ذلك أن سر

نجاح الانسان فى هذا العالم الرياضى الذى يعيش فيه هو أن يعرف قدره ولا يتجاوز حده ، والى ذلك دعا رسول الاسلام وقد كانت عاصمة برلين تصدر قبل الحرب العالمية الثانية عشرات المجلات حول الروح ، كانت كلها تخطب خطب عشواء لأن الروح ليست من أمر هذا الكون بل هى من أمر الله ، وقد اختبر اليهود مدى صدق رسالة سيدنا محمد عليه السلام بسؤاله من ماهية الروح ، فأجاب طبقا للآية الشريفة : « قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

وقد حلل الرسول عليه السلام الكثير من المشاكل الفكرية التى تخطب فيها رجال الفكر منذ أعرق المصور وما زالوا يحاولون الكشف عن اسرارها وقد وهم بعض الفلاسفة حتى المسلمين ممن تأثر بالمدرسة الاغريقية عند ما وسعوا دائرة العقل أكثر من اللازم ، فزعم ابن طفيل الاندلسى المغربى فى رسالة «حى بن يقظان» وابن سينا المشرقى فى «رسالة الطير ودوفوسى Defoe الأوربى فى قصة روبنسن كروزوى Robinson Crusoe أن الطفل الذى تربى فريدا وحيدا فى الغابة دون ملامسة البشر يمكنه بمجرد التفكير أن يحقق وجود الله ، ولكنهم لم يدركوا ما أدركه الغزالي انطلاقا من احاديث الرسول أن النفس والروح والقلب والعقل مدارك لطيفة ربانية واحدة من جملة أدواتها الإلهام *Inspiration* السذى به خططت النحلة منهج حياتها وهيكلى خليتها بصورة غير قابلة للخطأ *Infaillible* كما يقول علماء الاحياء وهو مصداق قول الله تعالى : «وأوحى ربك الى النحل» وهذا الإلهام هو الذى يتبلور عند المرأة فى صور محدس *Intuition* أى حس سادس أشار اليه الحديث المرسل أو الموقف بقوله «اللهم إيماننا كإيمان العجايز» وهو أيضا منطلق علم اليوكا *Yoga* اليوم ذلك العلم الذى أخصيت شخصا بين وصفاته التجريبية التى أصبحت مناط جاذبية الشباب — نيفا وعشرين حركة ووضعة فى الوضوء والصلاة وحدهما ولا أريد أن أطيل فى هذا الباب مخالفة أن ننزلق الى متاهات بعض المتصوفة التى جعل الرسول عليه السلام حدا مشروعا لإبعادها عندما قال «أمرنا أن نحكم بالظاهر والله يقولى السرائر» فضرب عليه السلام أروع المثل لوجوب الالتصاق بالارض دون المروج الى الأجواء المتناهية حتى نظل منطقيين واقعيين فى شؤون هذه الدنيا وفى علاقاتنا مع بنى الإنسان .

تلك فذلكة مقتضبة جدا لم نستهدف من خلالها سوى لمسات عابرة لحقائق لا يمكن استيفاؤها فى عرض موجز غير أننى أتمنى المجال لزملائى المؤتمرين وخاصة اخوانى المسيحيين لا لقاء ما يعرض لهم من أسئلة نستكمل بالاجابة عنها مالم نتمكن من تفصيل القول فيه .